

جلبير الأشقر*

العرب والمحركة النازية: ردّ على ياسين الحاج صالح

سيل آخر من الانتقاد. ولمّا كنْتُ من الذين يرحبون بالنقد والنقاش، فإن مأخذي الرئيسي على ناقدٍ ليس أنه كرّس معظم تعليقه على كتابي لانتقاده على الرغم من إقراره بفائدته في معرض النقد، وإنما ما عبّر عنه من آراء - أي أن سبب خيبة ظني ليس فعل النقد بذاته، وإنما منحاها. وهذا ما سأحاول شرحه.

إن فحوى ما يأخذه ياسين الحاج صالح عليّ يجد تفسيراً سياقياً - بنيوياً في خاتمة المقالة عندما يخلص ناقدٍ، بعد أن لامني مراراً على ما شكّل في نظره إفراطاً في تقدير أهمية إبادة اليهود الأوروبيين، وفي نقد من تعاون من العرب مع النازيين، إلى هذا التخمين: "نرجح أن هذا النسق التطهري المتكرر في كتاب الأشقر متولد من ضغوط يحددها الوضع البنيوي لكتابه، فهو مكتوب بالفرنسية، ومترجم فوراً إلى الإنجليزية، وموجه إلى جمهور غربي." وهو التفسير نفسه الذي أراد به بعض نقاد إدوارد سعيد من العرب أن يُنكر عليه المشروعية الوطنية العربية لأطروحات عبّر عنها مراراً وكانت مماثلة تماماً لتلك التي انتقدها ياسين

لما علمتُ أن "مجلة الدراسات الفلسطينية" نشرت مراجعة لكتابي الأخير "العرب والمحركة النازية" (القاهرة: المركز القومي للترجمة: بيروت: دار الساقى، ٢٠١٠) بقلم ياسين الحاج صالح،** سررتُ جداً، لأنني من الذين يقدرّون كتاباته وآرائه، بل شجاعته. أوليس خيراً ما يأمل به أي كاتب، ولا سيما من يخوض في موضوع معقد وشائك، أن يراجع كتابه من هو قادر على فهمه وإعطائه حقه؟ وأنا أشكر لياسين الحاج صالح الجهد الذي بذله في قراءة كتابي ومراجعته، غير أنني، والحق يُقال، فوجئت عندما قرأت المراجعة في ذاك العدد من "مجلة الدراسات الفلسطينية"، لأنني وجدتُها تسوق لي انتقادات من وحي سياسي ما كنتُ أتوقعه من كاتبها. طبعاً، لم يكتفِ ياسين الحاج صالح بالانتقاد، بل تضمنت مراجعته عبارة مدح قوي للكتاب أشكره عليها، وقد جاء فيها أنه "لا مجال للمبالغة في فائدته، ولا في اتساع رؤيته ونفاذ تحليلاته وقيّمته التثقيفية الكبيرة"، غير أن هذا المدح المقتضب جاء كأنه عرضياً قبل نهاية المقالة، كأن الغاية منه رفع العتب عن الناقد والتخفيف من المنحى النقدي العام لمراجعة بدأت باللوم وانتهت إليه. والحال أن عبارة المديح المذكورة لم تتوقف عند ما أوردته، بل استكملها الاستدراك التالي: "لكن هذا لا يمنع من أنه يمكن التحفظ تجاه قضايا إضافية فيه." وتلا ذلك

(*) كاتب عربي من لبنان وأستاذ في جامعة لندن.
(**) ياسين الحاج صالح، مراجعة لكتاب جليبير أشقر: "العرب والمحركة النازية: حرب المرويات العربية - الإسرائيلية"، "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ٨٤ (خريف ٢٠١٠)، ص ١٨٢ - ١٨٥.

أنفسهم بفعل قوة الدعاية المضادة وهزالة التصدي العربي لها، والمساهمة في تسليح العرب عامة والفلسطينيين خاصة بخطاب فعّال ضد الصهيونية، غير الخطابات السائدة التي لا تضر إلا القضية العربية ولا يستفيد منها إلا الصهليونون. وأنا في هذه المهمة أسير على خطى إدوارد سعيد وأمثاله العديدين، وكثافتهم عالية في الأوساط التي تصدر "مجلة الدراسات الفلسطينية" ومثيلتها بالإنجليزية والفرنسية (توقفت المجلة الفرنسية عن الصدور قبل عامين). ومن غير المستغرب أن تكون الأبواق الصهيونية في الغرب بدأت تهجم كتابي، كما فعلت مؤخراً اثنتان من المجلات الأميركية المشهورة بدفاعها عن دولة إسرائيل، والتي تنهال على أنصار القضية الفلسطينية بالنقد اللاذع، إن لم يكن بالشتائم وشتى الاتهامات.

وإذا تفحصنا الانتقادات التي وجهها ياسين الحاج صالح إلى كتابي، فسرى أنها لا تخلو من الإجحاف ومن أخطاء القراءة. فلنستعرضها ونناقشها هنا بأكبر قدر من الإيجاز الممكن.

١ - مع أن الناقد يقرّ في بداية مراجعته بأنني أفضل تسمية "إبادة اليهود" على "المرقة"، فإنه يأخذ عليّ قولي في مستهل الكتاب إن تلك الجائحة "ستظل إلى الأبد، من زاوية الأخلاق الإنسانية غير قابلة للتسمية"، فيرى أن هذا التعبير يؤدي إلى "إفراها عن غيرها من المحن الإنسانية" على غرار ما يريده إيلي فيزل، ويفتح الباب لضرب من "الاستثنائية" التي تطالب بها إسرائيل. وقد فات الناقد أنني في الفصل نفسه، كرّست مقطعاً طويلاً لانتقاد إيلي فيزل (فيسيل في الكتاب) تحديداً لأنه يلحّ "على اعتبار ألهولوكوست [بألف ولام التعريف] حدثاً فريداً لا مثيل له في التاريخ" (ص ٢٥). وهي ليست الحالة الوحيدة التي يوجّه فيها ناقدني ضدي سهاماً استناداً إلى أمور وردت في كتابي. ففي واقع الأمر، فإنني فسّرت تفضيلي لتعبير "إبادة اليهود" على تعبير "المرقة" بأن الأول "تعبير يستخدم مصطلح الإبادة العام بينما يحدد هذه الإبادة بالإشارة إلى هوية ضحاياها،

الحاج صالح في مؤلفي، وهو مؤلف يستند إلى سعيد ويستشهد به تكراراً. وإذا فلتنا الناقد إلى أن كاتباً فلسطينياً كخالد الحروب على سبيل المثال (انظر مراجعته الكتاب في جريدة "الحياة" في ٧/١١/٢٠١٠، بعنوان: "العرب والمحرقة النازية: رؤية إنسانية وعقلانية") يعبر هو أيضاً عن آراء مماثلة في مقالاته في الصحافة العربية، علاوة على ثناء الأستاذين نصير عروري ورشيد الخالدي على الكتاب، والذي ورد في صفحاته الأولى، ربما أجبنا ياسين الحاج صالح أن هؤلاء جميعاً يقطنون مثلي في الغرب، ويعانون مثلي، وبالتالي يعانون جزاءً "الضغوط التي يحددها الوضع البنيوي"، على غرار الراحل إدوارد سعيد. وقد فات الناقد أن مثل هذا التفسير البنيوي ذو حدين، فقد ينطبق بوجي من المنطق ذاته على من يلجأ إليه تفسيراً، وفي إمكان المرء أن يتساءل عما إذا كان الناقد السوري نفسه عرضة للضغوط التي يحددها الوضع البنيوي لوجوده في بيئة محدودة الانفتاح على سائر بلاد العالم بسبب الرقابة والقمع والمنع من السفر (ما سماه هو نفسه في عنوان كتابه: "سوريا من الظل: نظرات داخل الصندوق الأسود"، الإسكندرية: جدار للثقافة والنشر، ٢٠١٠)، الأمر الذي يعزز نسقاً قومجياً ضيقاً يغذيه النظام الحاكم: نسقاً كان ولا يزال عارضاً رئيسياً من عوارض البؤس الأيديولوجي الذي تعاني جزاءه منطقتنا العربية.

فلندع إذاً التفسير البنيوي جانبا، فهو غير مفيد في نقاشنا هذا. وفي واقع الأمر، فإن مؤلفي نقل فوراً إلى العربية أيضاً (نقله بشير السباعي بمعونتي، وقد صدرت طبعته العربية في القاهرة في كانون الثاني/يناير ٢٠١٠، أي قبل خمسة أشهر من صدور الطبعة الإنجليزية). وإذا صحّ أن الكتاب موجه بالدرجة الأولى إلى الجمهور الغربي - وهذا أمر بديهي لأنه مكرّس لدحض وتفنيد المروية الصهيونية الرائجة في الغرب، والتي تصوّر العرب أنهم أشباه النازيين - فإن غايته الأخرى هي تغيير صورة التاريخ العربي العالقة في أذهان العرب

ارتكبتها طرف غير عربي، ومن دون أن يكون لأي طرف عربي ضلع فيها أو في التحريض عليها، بينما النكبة ارتكبتها 'ضحايا الضحايا' (تعبير إدوارد سعيد)، وهي لا تزال مستمرة، ويحتمل أن تستمر عقوداً وأجيالاً، كما أن المرتكب المباشر لم يقبل في أي يوم أن يكون مساوياً وجودياً وسياسياً وحقوقياً للمنكوبين، وإنما يستكثر عليهم أن يملكوا سرديّة بشأن محتتهم ويطالبهم بمحو كلمة نكبة من سرديتهم (تسبيبي ليفني). الضحايا الفلسطينيون والعرب أقل كثيراً من ضحايا الهولوكوست المقدّرين بستة ملايين، لكن المسلسل التضحيوي مستمر هنا..." ماذا عساني أقول، وكل ما كتبه ياسين الحاج صالح، وساقه من تعقيب على كلامي - باستثناء الخطأ الجليّ في إيعاز ارتكاب النكبة إلى "ضحايا الضحايا"، وهم طبعاً الفلسطينيون في تعبیر إدوارد سعيد، وليس الإسرائيليين - إنما هو وارد في كتابي، كما ورد في صورة مقتضبة في مقابلتي مع صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية، والتي نشرتها بالعربية صحيفتا "الأخبار" البيروتية (١٢ أيار/مايو ٢٠١٠) و"القدس العربي" اللندنية (١٣ أيار/مايو). وكأن ياسين الحاج صالح هنا خلط في ذاكرته بين ما قرأه وبين ما ظن أنها أفكار نقدية تولدت لديه من وحي قراءة كتابي، وحتى إن لم يكن الأمر كذلك، فقد كان عليه ألا يعطي القراء انطباعاً بأنها آراء خاصة به ومتناقضة مع آراء الكاتب. لقد قلتُ في مقابلتي مع الصحيفة الإسرائيلية:

كيف يمكنكم انتقاد إنكار المحركة في العالم العربي عندما تنكر إسرائيل النكبة الفلسطينية؟ أنا لا أشبه بين طرد الفلسطينيين سنة ١٩٤٨ وبين المحركة. فالمحركة كانت إبادة جماعية وبالتالي مأساة أعظم بكثير من آلام الفلسطينيين منذ ١٩٤٨. غير أن العرب والفلسطينيين لم يقترفوا المحركة، بينما إسرائيل هي المسؤولة عن النكبة، وقد أثبت ذلك مؤرخون إسرائيليون. ومع ذلك، تواصل إسرائيل إنكار مسؤوليتها التاريخية عن تلك المأساة. وقد احتجّت وزيرة

شأن مصطلحات إبادة الأرمن، أو إبادة الروما أو الإبادة الرواندية. وهذه المصطلحات لا تلغي بأي حال القول بأن كل إبادة هي، بشكل ما، حدث له خصوصيته، كما لا تلغي الواقع الذي لا سبيل إلى إنكاره والذي يتمثل في أن إبادة اليهود تفوق في حجمها جميع الإبادات الأخرى التي عرفها القرن العشرون. وهذه ملاحظة موضوعية يمكن، ويجب الاعتراف بها دون الدخول في منافسة الضحايا..." (ص ٢٢). أمّا القول إن إبادة ما يقارب ستة ملايين من اليهود الأوروبيين، معظمهم بواسطة مجزرة صناعية ممنهجة بعد حشدهم في معسكرات كابوسية، إنما هي جائحة ستبقى إلى الأبد "غير قابلة للتسمية" من الزاوية الأخلاقية (وليس من زاوية علم التاريخ، طبعاً)، فهو مجرد تشديد على فظاعتها ولا يعني البتة أن القول ذاته لا ينطبق على سائر الإبادات، أكانت إبادة الأرمن، أو إبادة التوتسي واليهوتو في رواندا وبوروندي، أو غيرهما من فظائع التاريخ العظمى. والحصيلة أن اتهام ياسين الحاج صالح لي بأنني شاركت، على حد قوله، في "الإفراد المتعدد الأشكال للمحركة... غير مكتفٍ بالامتناع من نقده" إنما هو مخالف تماماً للحقيقة. ولا شك لديّ في أن ناقدٍ لم يكن يقصد الافتراء عليّ، بل إن ما كتبه إنما نتج من سهوه عمّا قرأ في كتابي، ومن إسقاطه آراء عليه يبدو أنها مستوحاة من أفكار مسبقة تكونت لديه ممّا توقّع أن يجد في الكتاب.

٢ - يأخذ ياسين الحاج صالح عليّ قولي إنه "وبطبيعة الحال، كانت المحركة أبشع بما لا يُقارن، من النكبة وأكثر منها دموية. على أن هذا الاعتبار لا يقلل بحال من جسامته مأساة الفلسطينيين، لا سيما أنهم، كشعب، لم يتحملوا أي ذنب في وقوع دمار اليهود الأوروبيين" (ص ٤١)، فيرى في ذلك الإقرار بالبداهيات وقوعاً في "فخ أخلاقي" ويتفضّل عليّ في هذا الصدد بلفت نظري إلى الحقائق التالية: "باتت هذه المقارنة مضمرة في جميع المقاربات الإسرائيلية والغربية والعربية للمحركة... فالمحركة في واقع الأمر، وقعت قبل أكثر من ستين عاماً، وقد

الخارجية السابقة تسببي ليفني على الأمين العام للأمم المتحدة لاستعماله كلمة النكبة، التي تعني الكارثة باللغة العربية... إن الفلسطيني أو العربي الذي يقول إن المحرقة قد اخترعها الصهاينة لتبرير أعمالهم، إنما يتفاعل مع استخدام إسرائيل للمحرقة لأغراضها الخاصة. إنه رد فعل غبي. وإنكار المحرقة في رأيي هو عداء الأغبياء للصهيونية، لكن هؤلاء أناس ينكرون حدثاً تاريخياً لم يكن لهم ولا لشعبهم أي دور فيه. في المقابل، فإن الإنكار الإسرائيلي للنكبة أخطر بكثير لأن إسرائيل كانت هي المسؤولة عنها. كانت النكبة حدثاً حاسماً في تأسيس إسرائيل. ثمة دول أخرى قامت في ظروف مشابهة، غير أنه ينبغي عليكم أن تقرّوا بالحقيقة التاريخية وبالمسؤولية التاريخية. إن الوضع يزداد سوءاً اليوم بسبب الاضطهاد الإسرائيلي للفلسطينيين.

لاحظوا أن ياسين الحاج صالح كتب في نقده الموجّه إلى جمهور عربي: "ثمة إنكاران لا إنكار واحد، ومصير أحدهما مرتبط بمصير الآخر. الألم الإنساني واحد، وإعلاء آلام على أخرى لن يقود إلا إلى التلاعب السياسي بالألم الإنساني". بينما لم أتردد من جهتي، وفي توجهي المباشر إلى الجمهور الإسرائيلي، في التشديد على أن الإنكار الإسرائيلي للنكبة "أخطر بكثير" من الإنكار العربي للمحرقة. فماذا حلّ، يا ترى، بالضغط الذي يحددها الوضع البنيوي؟

٣ - يأخذ عليّ ياسين الحاج صالح أنني بلغت "إحدى الذرى الانفعالية العالية" في حديثي عن "تواطؤ إجرامي" في صدد تعليقي على مواقف وأفعال شكيب أرسلان وأمين الحسيني، فيرى ناقدتي أن أحكامي "تصدر عن ضمير كلي الإحاطة يحكم بمفعول رجعي على وقائع وممارسات كان من يدينهم بها أقل إحاطة بما يجري وغير مستوعبين لمداه، مثلهم في ذلك مثل معظم القوى الغربية ذاتها، وحتى الصهيونيين، إلى سنة ١٩٣٩ على الأقل". فيسترسل في تشبيهي بما يسميه "الراوي

العليم" الذي هو في موقع "لا يقدر عليه إلا الله، أو الشيطان"، مضيفاً أنني أقيم خارج الزمان والمكان وأدين "أشخاصاً لا مسافة نفسية تفصلهم عن الحدث" من منطلق "معرفة تراكمت خلال نحو ثلاثة أجيال"، وهلمّ جرّاً.

ولو تمعنّ ناقدتي في قراءة ما كتبته لوقرّ على نفسه انفعاله بحجة انفعالي، فقد كتبتُ عن أرسلان والحسيني ما يلي: "بحكم أنهما كانا على دراية جيدة بالنظم الفاشية، كان ذنبهما أعظم بكثير من ذنب جميع أولئك الذين كانت هذه النظم قد فتنتهم عن بُعد. إذ لا يمكن اتهام شكيب أرسلان، المقيم في أوروبا، والعليم بما يجري في ألمانيا، بأنه كان يجهل واقع الفاشية والنازية الشمولي أو أن العمى العاطفي قد غرّ به، شأن الغالبية الساحقة من الستالينيين الذين عاشوا خارج الاتحاد السوفياتي. ولا سبيل إلى إعفائه من مسؤوليته الجسيمة في حفز تحالف مع دول إمبريالية شمولية أسوأ بكثير من الدول الإمبريالية التي سيطرت على العالم العربي. وأمّا تواطؤ أمين الحسيني الإجرامي فقد كان أخطر بكثير من تواطؤ أرسلان، وذلك لأن تعاونه مع دول المحور قطع شوطاً أبعد من شوط تعاون أي أحد آخر من مؤيديها العرب. فقد قدّم نفسه على أنه زعيم الأمة العربية قاطبة والعالم الإسلامي بأسره، المنخرط في صراع مع الإنجليز، وإن كان أيضاً، وبالدرجة الأولى، مع اليهود. وفي الأعوام التي قضاها في أوروبا، دخل، دون أي تأنيب للضمير، في هلوسة النازيين الإجرامية عن اليهود، متسق الخطو معها في تحولها إلى أعظم الجرائم ضد الإنسانية" (ص ٢٠٨).

فمن الواضح تماماً أنني لا أطلق على جميع العرب الذين تعاونوا مع النازية أحكاماً مطلقة، بل أحكم على كل واحد منهم في ضوء ما فعله حقاً وما كان يعرفه. فإدانتني الكبرى لأرسلان في كتابي تتعلق بتواطئه مع إيطاليا الفاشية، وهي مقرونة بمعرفته كسائر العرب بالجرائم البشعة التي ارتكبتها في ليبيا والتي بيّنتُ في كتابي قدر السخط الذي ولّته لدى الرأي العام العربي، فضلاً عن

بأوروبا، أو أن هناك ما هو نافع لأوروبا وضار بالجنس البشري، فسأعتبره إجرامياً." ولم يخطر في بالي أن مفكراً عربياً من أبرز دعاة التنوير في القرن الواحد والعشرين ربما يصعب عليه فهم هذا المبدأ الأساسي.

ثم يتابع ناقدتي: "لقد كان متاحاً للمؤلف أن يتوقف أطول ممّا فعل أمام إشكالية أخرى متصلة بالسابقة، وهي مطالبة المفتي الحاج أمين الحسيني السلطات النازية بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين؛ هذه المطالبة التي يدينها الأشقر بعنف بالغ." ويضيف: "وفي الحقيقة، فإننا هنا حيال معضلة أخلاقية فريدة: إمّا التغاضي غير المقبول عن مصير اليهود، وإمّا القبول بأن يهاجروا إلى وطن المفتي كي يقيموا دولة تطرده ومواطنيه من أرضهم..." هنا أيضاً لو دقق ناقدتي حقاً بما كتبتّه بدلاً من إسقاطه أفكاراً مسبقة عليّ، لوفّر على نفسه كثيراً من العناء. ويبدو أنه لم يلاحظ أنني خصصت خمس صفحات ونصف صفحة لمناقشة موضوع رسائل المفتي إلى حكومات المحور بشأن هجرة اليهود إلى فلسطين، وهذا القدر من الاهتمام ناجم عن كون تلك الرسائل تشكل حججاً رئيسية في المروية الصهيونية، وكان لا بد لي بالتالي من تناولها عن كثب في كتاب مخصص لدحض تلك المروية. فمن العجيب أن يلومني ناقدتي لأنني لم أتوقف أطول ممّا فعلت، والحال أنه أغفل ما كتبت، إن إنني بينت كيف أن الوجه الإجرامي لرسائل أمين الحسيني لم يكمن في دعوته حكومات المحور إلى عدم إرسال اليهود إلى فلسطين (بالمناسبة، كان الحسيني يعلم تمام العلم أن النازيين، منذ استيلائهم على السلطة في ألمانيا وحتى سنة ١٩٤١، قد تواطؤوا مع الصهيونيين في تنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بما في ذلك الهجرة غير الشرعية بالالتفاف على التقييدات البريطانية، ولا بد من إضافة هذا الأمر إلى ما ناقشناه في البند السابق بشأن معرفته بالأمر)، وإنما كمن الإجرام في دعوته تلك الحكومات إلى إرسال اليهود إلى معسكرات الاعتقال في بولندا. فكتبت بكل وضوح،

الاحتلال الإيطالي اللاحق للحبشة. وفات ناقدتي أنني بينت كيف أن العرب الذين اختاروا التعاون مع النازية شكلوا حفنة صغيرة جداً من الناس بينما كان عدد العرب الذين رأوا أن ذلك التعاون غير مشروع أكبر كثيراً، وهم أدركوا ما أدركه غيرهم من معاصريهم من دون حاجة إلى أي معرفة "إلهية". ثم إذا صحّ أن جرائم النازية حتى سنة ١٩٣٩ كانت أقل حجماً ووضوحاً ممّا غدت عليه لاحقاً، فلماذا لم يخطر في بال ناقدتي أن جرائم الصهيونية بقيت محدودة هي أيضاً حتى سنة ١٩٤٧ مقارنة بما ستسفر عنه عندما شنت هجومها الشامل لاغتصاب أرض فلسطين واقتلاع شعبها وتأسيس دولة إسرائيل؟ هذا، وكان العرب، في معظمهم، الذين أتاحت لهم ثقافتهم متابعة الأحداث الأوروبية، حتى من بعيد، يدركون قبل سنة ١٩٣٩ أن النازية والفاشية تشكلان خطراً عظيماً على الإنسانية جمعاء، فكم بالأحرى الذين عاشوا في أوروبا وعاشروا النظامين على غرار شكيب أرسلان؟ هذا، ولن يفوت أي قارئ لكتابي أن موضع إدانتي القصوى هو أمين الحسيني الذي أفاد هو نفسه بافتخار في مذكراته أن أصدقاءه النازيين بلغوه في صيف سنة ١٩٤٣ أنهم في صدد إبادة اليهود، وأنهم أفنوا ثلاثة ملايين منهم حتى ذلك التاريخ. فإن ما أسميته "تواطؤ أمين الحسيني الإجرامي" يتعلق بما فعله بعد انتقاله إلى أوروبا في سنة ١٩٤١، وخلال وجوده فيها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. ولم تحل معرفته بالجريمة النكراء التي كان النازيون يرتكبونها دون متابعة تعاونهم معهم وتحريضه العرب من إذاعة برلين على حمل السلاح إلى جانب دول المحور وبثه دعاية عنصرية مقتبسة مباشرة من الدعاية النازية، بما في ذلك الثناء على "الحل النهائي" (أي إبادة اليهود).

وقد ختمت نقدي لمقولة "عدو عدوي صديقي" بالإحالة إلى كلمات أحد أبرز مفكري عصر الأنوار الأوروبي في القرن الثامن عشر الذي كتب: "إذا عرفت أن هناك ما هو نافع لبلدي، لكنه ضار

وبعكس ما ساقه ناقيدي، أن "التوصية بإرسال يهود البلدان المشار إليها إلى معسكرات الاعتقال في بولندا - حتى على فرض أن هذه المعسكرات كانت معسكرات احتجاز لا أكثر - كانت أكثر بكثير من مجرد طلب بعدم إرسالهم إلى فلسطين. فطلب من النوع الأخير، إذ يأتي من قائد للحركة الوطنية الفلسطينية، إنما يجوز الدفاع عنه بوصفه طلباً مشروعاً، لكن الطلب الذي قدمه المفتي في الواقع كان كريهاً" (ص ٢٤٧). هنا أيضاً، كما في شأن الإنكارين، فإن حقيقة الأمر هي أن الفارق بين موقف وموقف ياسين الحاج صالح هو أنني أكثر جذرية منه في الدفاع عن القضية الفلسطينية، فحيث يرى هو معضلة أخلاقية في الوقوف ضد هجرة اليهود إلى فلسطين في زمن إبادة، أرى من جانبي أن مثل هذا الموقف مشروع من وجهة النظر الوطنية الفلسطينية، أما ما لم يكن مشروعاً على الإطلاق فهو الدعوة إلى إرسالهم إلى المعسكرات النازية. هذا هو الموقف الذي أدافع عنه في جميع محاضراتي في الغرب كلما واجهني أحد أنصار الصهيونية بالقول إن الفلسطينيين ساهموا في الإبادة النازية بمجرد إصرارهم على رفض الهجرة اليهودية إلى وطنهم، فأدافع عن موقف الفلسطينيين الذين رأوا في تلك الهجرة تهديداً لهم بفقدان وطنهم، وأحيل اللاتمين إلى مسؤولية أميركا وبريطانيا في عدم استيعاب اللاجئين اليهود في أراضيها الواسعة حيث لا يهددون أحداً.

ختاماً، أسف لأن تكون تلك المناقشة تركزت في

معظمها على تصويب ما نقله ناقيدي خطأ عن كتابي بدلاً من أن تكون مناقشة لأفكار الكتاب بذاتها. وبما أن ياسين الحاج صالح مثقف محترم، فأنا لا أجد من تفسير لسوء قراءته إلا أنه أسقط على كتابي توجهات توقع أن يجدها داخله بفعل أفكار مسبقة عن انتمائي إلى المثقفين العرب الذين يقعون "تحت ضغط المبالغة" بإبداء تعاطفهم مع ضحايا المحرقة النازية. ولبّ المشكلة أن ناقيدي من الذين يتعاملون مع المحرقة كأنها ملك للحركة الصهيونية، ويرون أن علينا في تعاملنا معها أن نتعامل بروح المقايضة، بينما أنا من الذين يرون في المحرقة النازية جائحة تخص الإنسانية جمعاء، وتتناقض دروسها تناقضاً صارخاً مع أفكار الصهيونية وممارساتها التي كان ضحايا النازية اليهود براء منها في معظمهم (وإلا لهاجروا إلى فلسطين بدلاً من البقاء في أوروبا) مثلما لم تكثر هي حقاً لمصيرهم، غير مبالية إلا بمشروعها الاستيطاني في فلسطين. وأنا على أتم الاتفاق مع ما كتبه جوزيف سماحة في سنة ٢٠٠١، والذي استشهدت به في كتابي، من أن "العرب يصبحون أقدر على إدانة الاستغلال الإسرائيلي [للمحرقة] بقدر ما يتجنبون الفخ الذي ينصبه لهم وعي سهل وتبسيطي وخطير. تجنب هذا الفخ هو الطريق الضروري لربط قضية الفلسطينيين والعرب المحقة حيال إسرائيل وحلفائها بهم إنساني عام يجعل منهم مستودع الرفض الأخلاقي للوحشية النازية وللتعسف الإسرائيلي." ■